الباب الأول

مفهوم حصول التوحيد بالجهد الحركي للدعوة إلى الله والهجرة والنصرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

مفهوم حصول التوحيد بالجهد الحركي للدعوة إلى الله والهجرة والنصرة

أولاً: الإيضاح والبيان في معنى كلمة الجهد:

أ. معنى كلمة الجهد: بالفتح الطاقة والوسع يضم وبالفتح فقط المشقة، وبهما الغاية تقول: اجهد جهدك، ابلغ غايتك والمبالغة ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [سورة المائد، الآية: ٥٣] أي بالغوا في اليمين واجتهدوا، وبالضم الشيء القليل يعيش به المقل، وبالفتح ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاق فهو مجهود، «الاجتهاد»: بذل الوسع، واستفراغ الفقيه الوسع ليحصل له ظن في حكم شرعي وبذل المجهود في طلب المقصود من ناحية الاستدلال[١].

ومجاهدة من جاهد، وقصارى جهده: أقصى ما يملك من إمكانيات[٢].

ب. بيان معنى كلمة الجهد عن طريق مدلول الجهاد:

مدلول الجهاد في الكتاب والسنة:

«هو استفراغ الوسع والطاقة وتحمل المشقة والصبر عليها في

---

(١) معجم البستان / الشيخ عبد الله البستاني ص ١٩٠.

(٢) المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ومتكلميها / ص ٢٧٢.

الدعوة إلى الله تعالى حسب ما يقتضيه حال المدعو من الحجة والبيان وبذل الأموال أو المحاربة بالسيف والسنان وبكل ما يمكن أن يجاهد به في كل زمان ومكان كل ذلك مبين في الكتاب والسنة أحسن بيان»[1]

قال تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

ذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا، وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال، وقال السدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال.

قال ابن عطية:، فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المطلوبين، وقمع الظالمين وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى[2].

ذكر ابن كثير في تفسيره: في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [سورة الفرقان: آية ٥٢] قال ابن عباس: يعني جاهدهم بالقرآن[3]. ذكر البيضاوي في تفسيره: (جاهدهم به)

---

(١) مشارع الأشواق في الجهاد وفضائله ص ٢٠، ابن النحاس الدمياطي المتوفى سنة ٨١٤هـ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٣ ـ ١٤، العنكبوت (٦٩) ص ٣٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ج ٣، الفرقان، الآية (٥٢).

بالقرآن أو بترك طاعتهم، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك، فقابلهم بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم (جهاداً كبيراً) لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف أو مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوهم وظهورهم، أو أنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى[1]..

وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[2] وقال رسول الله ﷺ **«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»**[3].

قال ابن النحاس: ومن هنا نعرف أن الجهاد في مدلول الشرع أعم من أن يكون قتالاً كما فهمه بعض أهل العلم، مما جعل أهل الباطل ينالون من الإسلام بسببه، بل القتال بعض أنواع الجهاد، ولا يستعمل إلا عند الضرورة والاضطرار إليه، كالكي للعلاج.

وأكبر شاهد على ذلك وصية رسول الله ﷺ لأمير الجيش أو السرية وهي:

«وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[4].

---

(١) تفسير البيضاوي، ج ٣ ـ ٥، الفرقان، الآية (٥٢).

(٢) متفق عليه إلا أن مسلماً لم يذكر (إلا بحق الإسلام)، والبخاري (٦/ ٣٦١) وذكره التبريزي في المشكاة كتاب الإيمان، ص١١.

(٣) صحيح، رواه أبو داود: ٣/ ٢٢، والنسائي، المجتبى: ٦/ ٧، وأحمد في المسند، ومسلم: ٣/ ١٣٥٧.

(٤) مشارع الأشواق لابن النحاس، ص ٢١.

ونلاحظ من هذه الوصية النبوية، أن دعوة الكفار إلى الله بالحجة والبيان مقدمة دائماً على الدعوة بالسيف والسنان، والجهاد كلمة مشتقة من الجهد وهو استفراغ الوسع والطاقة، وتحمل المشقة لنيل مقصد ما، فكلمة الجهد واسعة الإطلاق، وهي الطريق المؤدي لتحصيل الأشياء كلها، فمثلاً كلمة التجارة أو الزراعة أو الصناعة هي مجرد ألفاظ، ولكنها لا تتحول لواقع يتعايشه الإنسان ويتأثر به سلباً وإيجاباً إلا إذا بذلت من أجله الأنفس والأوقات والأموال، والعكس كذلك إذا ترك الجهد من أجله يكون النقص فيه تدريجياً ولا يظهر أثره بين الناس، كذلك لا يتحقق الإيمان واليقين في حياتنا إلا إذا أخذنا طريق الاعتصام بالكتاب والسنة ومنهاج سلف الأمة، ذلك الطريق الذي اشترط رب العزة بذل الجهد في تحصيله، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

قال ابن القيم في بيان طريق الجهد للتوحيد: «**أين أنت من الطريق، تعب فيه آدم، وناح فيه نوح، ورُمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، وذبح السيد الحصور يحيى، ونشر بالمنشار زكريا، وسار مع الوحش عيسى، وزاد على المقدار بكاء داود، وعالج أنواع الفقر والبلايا محمد ﷺ**»[1].

وخلاصة البحث عن معنى كلمة (الجهد) هو استفراغ الوسع والطاقة وبذل المشقة في سبيل الدعوة إلى الله، وتحريك للأقلام، والأقدام والألسن بالأقوال والمجاهدة بالأنفس والأموال، ونقل الدعوة إلى الله إلى عدة محاور منها المسجد، والبيت، والقرية التي يقطن فيها الداعي إلى الله والقرى المجاورة لقريته، وكذلك إقامة الدعوة إلى الله

---

(١) الفوائد لابن القيم، هكذا فلتكن الرجال، ص ٦٧.

في الأقطار الأخرى من العالم، وبهذه الحركة الدعوية الواسعة النطاق والانقطاع عن العلائق الدنيوية، لإعلاء كلمة الله بين خلقه، والتضحية في سبيل الله بالمال والنفس والوقت يتحصل الداعي إلى الله على قوة اليقين، والتجرد لله تعالى عن كل ما سواه، وهذه الحركة الدعوية منهج رباني حافل بالتضحيات والصبر على غمرات المحن والبلاء وفراق الولد والوطن حتى دفعت الصحابة ﷺ ومن مشى على دربهم واقتفى أثرهم إلى بلوغ مراتب اليقين والتوكل على ذات الله ﷻ والذي قال فيه تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة الصف: آية ١١] ومن هنا تجدر الإشارة إلى البحث في الجهد الحركي للدعوة وأثره في ترسيخ اليقين.

ثانياً: الجهد الحركي للدعوة إلى الله وأثره في ترسيخ اليقين:

قلت: قد سبق لنا أن عرفنا كلمة الجهد في المعنى الشرعي لكلمة الجهاد وهو استفراغ الوسع والطاقة وبذل المشقة للدعوة إلى الله حسب ما يقتضيه حال المدعو من الحجة والبيان..... إلخ، وعلى ذلك يجب البحث في ماهية الجهد الحركي للدعوة لشق الطريق في أخذ المنهاج الكامل.

قلت: إن الناظر في السّنة المطهرة ليجد فيها العديد من القصص العظيمة والتي تحوي عبراً وفوائد حكيمة والتي لا غنى للداعية إلى الله تعالى عن معرفتها والعمل بها وفقهها كما فقهها الصحابة ﷺ أجمعين عن طريق الجهد الحركي والتطبيقات العملية لهذا الدين، مما أوصلهم إلى أعلى مراتب اليقين والتوكل واستحضار المغيبات كأنها رأي العين، وهيج لديهم عاطفة الرحمة لنفع الخلق والشفقة على إخراجهم من المعصية إلى الطاعة، وكشفت التطبيقات العملية والجهد الحركي للقائم بالدعوة إلى الله عن حقيقة المعاناة

والصبر الذي يتلقاه الداعي في طريق الدعوة إلى الله وشفقته على الخلق لما يرى من تفلتهم عن طاعة الله ﷻ وبعدهم عن تعاليم الدين الإسلامي، فإن الإنسان يعيش في هذه الحياة الدنيا بين غنى وفقر، وصحة وسقم وجهل وتعليم وأمير ومأمور وسعادة وتعاسة وهو (أي الإنسان) في أثناء تنقله بين هذه الحالات والأوضاع بحاجة إلى من يأخذ بيده إلى طريق الهداية ويبعده عن طريق الغواية، فعند ذلك يكون الجهد الحركي للدعوة إلى الله من اللوازم الأساسية، حيث تتكشف فيه من الفوائد العظيمة والجليلة ما يجعله العمود الأساسي لتبليغ الدين بعد العلم الشرعي، إذ أنه أصل من أصول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم.

سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ فقالت: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟، فقال عليه السلام: **«لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت»**[1] قلت هذا هو الجهد الحركي للدعوة إلى الله القائم على عرض النفس في قوله عليه السلام: (**إذ عرضت نفسي**) وهو دأب الأنبياء ومن سار على منهجهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن فوائد الجهد الحركي للدعوة إلى الله أنه يقرر الأحكام الشرعية واقعاً ويرسخها في النفس البشرية وذلك لما يبنى عليه من التضحية والتطبيق العملي لمنهج الدعوة إلى الله، وله أثره البالغ في صقل النفوس واستقرار المعاني مما يتجلى للداعية إلى الله من أسرار هذا الدين ما لم يتجل له قبل الجهد الحركي، فالإسلام جاء ليقرر واقعاً في حياة الثقلين ولم يأت ليقرر كلمات أو أحرف على سطور

(١) متفق عليه (خ: ٦/ ٢٢٤، م: ١٧٩٥).

فقط، وعلى ذلك يمكن أن نضيف فوائد هامة بالأمثال، وهي أنها تعد زاداً غنياً للداعية إلى الله تعالى يلجأ إليه الفينة بعد الأخرى في ذكر أمثلة من السّنة المطهرة لما تحتويه من عبر وعظات عن طريق التطبيقات العملية لأحكام الشريعة ومعانيها وتقريرها في حياة الناس.

فمثلاً لفظ (السباحة) هي بذاتها كلمة في سطر قد يؤلف فيها من يؤلف من الكتب والمصنفات، ولكنها لا تتحول إلى واقع يتأثر القائم بها سلباً وإيجاباً إلا من خلال التطبيق العملي في البحر أو أي مكان مخصص لها في ذلك.

كذلك الصبر على الدعوة من المحال أن يكون صبراً حتى ولو صنف المصنفون فيه من الكتب العديدة وهو بذلك لا يعدو أن يكون ألفاظاً في سطور.

ومن الأمر البديهي أن لا يكون حقيقة إلا من خلال الجهد الحركي وتحريك الأقدام والصبر على ما يعتري الداعي إلى الله من البلاء والتمحيص والحلم والأناة على من يقوم بدعوتهم.

فعن أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه يقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

قال أصحاب نزهة المتقين شرح رياض الصالحين: أن هذا الحديث فيه من الفوائد ما تبين صبر الأنبياء وتحملهم الأذى في سبيل تبليغ دعوتهم للناس، ومن أخلاق الأنبياء مقابلة الجهل

---

(١) متفق عليه (خ: ١٢/٢٤٩، م: ١٧٩).

بالغفران والسماحة وعدم معاملة الجاهلين بمثل أعمالهم والتأسي بأخلاق النبي ﷺ في تحمل الأذى[1].

قلت: هذا هو الصبر حقيقة واقعة إذ أن النبي ﷺ ما تذمر من دعوته بل نسب التقصير لنفسه، وما تبرأ من قومه بل دعا لهم في ظهر الغيب وقال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»..

كما أن لفظ «**التوكل**» هو بذاته كلمة في سطر ولا يمكن أن يكون حقيقة واقعة يتأثر بها المسلم إلا من خلال التطبيق العملي لها في ميدان الجهد والتضحية، ونستدل من السّنة المطهرة بما يبين أن الجهد الحركي والتطبيق العملي لأحكام الشريعة له أثره البالغ في ترسيخ التوحيد في النفس البشرية.

فعن جابر رضي الله عنه أنه غزا مع النبي ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال:.

«**إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتاً، قال من يمنعك مني ؟ قلت: الله**» ـ ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس.

وفي رواية: قال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ قال: «**لا**» قال: فمن يمنعك مني؟ قال «**الله**».

---

(١) نزهة المتقين، شرح رياض الصالحين ص ١٢٥.

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه: قال: من يمنعك مني؟ قال «الله» قال فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال:.

«**من يمنعك مني؟**» فقال: كن خير آخذ، فقال «**تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله**» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس[1]..

قلت: فالمتأمل في هذا الحديث وما فيه من الحكم النبوية والمواعظ العظيمة وكيف علّم رسول الله ﷺ الصحابة رضي الله عنهم اليقين والتوكل وهم في ميدان الجهد والتضحية، وذلك من قصة الأعرابي عندما اخترط السيف من يده ﷺ ثم إنه عليه السلام ما ترك الأعرابي حتى جاء به إليهم وعلمهم التوحيد عن طريق التطبيقات العملية عند رجوعهم من غزوة ذات الرقاع، وقد شدوا على أرجلهم الخرق من شدة الحر وفقد النعال، وكذلك الانقطاع عن الأسباب والعلائق وتحين النبي ﷺ لتلك الفرص الجليلة وما يتعرضون إليه في ميدان الجهد الحركي من المحن والبلاء مما دفعتهم تلك المجاهدة العظيمة إلى الانقياد الكامل والاستغاثة بمسبب الأسباب ومقدر الأقدار، كما جاء في لفظ الحديث من قول جابر رضي الله عنه (فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي) ثم أخذ النبي ﷺ يبين للصحابة ما حدث من قصة الأعرابي وكيف اخترط الأعرابي السيف وهو بيده صلتاً ثم بين ﷺ كمال اليقين والتوكل على ذات الله بأنه لا يضر ولا ينفع ولا يخفض ولا يرفع إلا الله جل وعلا عندما قال له الأعرابي (من يمنعك مني؟ وقوله ﷺ «الله، الله» وهو لفظ الجلالة علم

---

(١) متفق عليه (خ: ٦/ ٧١، م: ٨٤٣).

على ذاته وهو أعرف المعارف على الإطلاق خرج من قلب كمل باليقين والتوكل، ثم توضيحه لتعاليم الإسلام بأن الدين الإسلامي ليس دين الإكراه أو الانتقام أو قتل النفس وزهق الأرواح أو الفساد في الأرض، وإنما دين الرحمة وتقديم مقتضيات الدعوة إلى الله على حظوظ النفس وشهوتها وإثبات البراءة من الحول والقوة إلى حول الله وقوته.

وقد ذكر هذه الرواية الإمام النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب اليقين والتوكل، وكان من شرح الحديث في كتاب نزهة المتقين شرح رياض الصالحين أن الحديث أفاد شجاعة النبي ﷺ وثبات قلبه أمام المخاطر، وثقته بالله تعالى وحسن الالتجاء إليه، وأثر التوكل على الله تعالى في الخلاص من الشدائد وأن رسول الله ﷺ أطلق سراحه رجاء إسلام قومه وإقبالهم على حضرته الشريفة يتغذون من لبان معرفته[1].

قلت: إن قصة الأعرابي نموذج واضح على أن الجهد الحركي له أثره العظيم في ترسيخ التوحيد وتحويل ألفاظ الشريعة إلى مناهج في الحياة الدنيا، ونبراس للأمة الإسلامية، على أنّ هذا الدين هو دين التضحيات والجهد والبذل والعطاء.

وخير ما نستدل به من الأمثال على التطبيقات العملية في ساحة الحركة والجهاد ما بينه الشيخ عبد العزيز السلمان في كتابه «الكواشف الجلية باب كرامات الأولياء»: ما كان من شأن الصحابي الجليل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي حينما اندفع يقاتل المشركين يوم بدر ويحصد فيهم حصدًا حتى انكسر سيفه فلم يثنيه ذلك عن

(١) نزهة المتقين، شرح رياض الصالحين / باب اليقين والتوكل، ص ١١٣.

خوض المعركة ولم يتخذ من كسر سيفه معذرة عن القتال فجاء إلى النبي ﷺ يخبره بكسر سيفه وإرادة غيره فدفع ﷺ جذلاً من حطب فقال له: «**قاتل بهذا يا عكاشة**» فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه فعاد في يده سيفاً صارماً طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة فقاتل به رضي الله عنه حتى فتح الله تعالى على المسلمين، ولم يزل عنده ذلك السيف يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى استشهد في قتال الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه . انتهى كلامه[1].

قلت: إن فقد الأسباب في ميدان البلاء والتمحيص تفضي للداعي إلى الله الاستغاثة الصافية لمسبب الأسباب وهو الله جل وعلا، فيمتزج عندها نور البصر بنور البصيرة فلا يرى إلا يقيناً صافياً يبعث بنزول الكرامات وتحقق النصرات الغيبية كما كان من شأن الصحابي عكاشة رضي الله عنه عندما دفع إليه الرسول ﷺ جذلاً من حطب أمام تلك المشاهد المرعبة من إراقة الدماء وقطع الرقاب، وما كان منه إلا أنه أظهر كمال الانقياد والتسليم لحكم النبي ﷺ ظاهراً وباطناً على حكم التصريف والتكليف، وما تحققت تلك الكرامة إلا في ميدان الجهد الحركي والتطبيقات العملية لهذا الدين، وكان من كرم الله ﷻ لهذا الصحابي لما وصل إليه من كمال التوحيد والتوكل على الله تعالى، ما رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ «**فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما الذي تخوضون فيه؟**» فأخبروه، فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: ادع الله

---

(١) الكواشف الجلية لمعنى الواسطية للسلمان باب كرامات الأولياء، ص ٧٢٤.

أن يجعلني منهم، فقال «**أنت منهم**» ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[1]..

قال صاحب الظلال:

لقد وردت روايات متعددة حول تفسير الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٢٢].

والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة ـ على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون ـ لتتفقه هذه الطائفة بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة.. والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه ـ له من تأويل ابن عباس ﷺ ـ ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير ـ **أن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به**، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به، أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون، وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ﷺ، والخروج بصفة عامة أدنى للفهم والتفقه، ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الأذهان، من أن المتخلفين عن الغزو

---

(١) متفق عليه (خ: / ١٠/ ١٣٠، م: ٢٢٠).

والجهاد والحركة، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين، ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين... إن الحركة هي قوام هذا الدين، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ويجاهدون في تقريره في واقع الناس، وتغليبه على الجاهلية، بالحركة العملية والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه، مهما تفرغوا لدراسة الكتب دراسة باردة، وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى لمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس، ولا تتجلى للمستغرقين على الكتب العاكفين على الأوراق، وإن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة. انتهى كلامه[1].

٢ ـ التوضيح في ماهية الجهد الحركي للدعوة إلى الله:

قلت: فمن خلال النظرة العامة لجميع المناهج الدعوية، ينقسم الجهد الحركي للقائم بالدعوة إلى الله إلى ثلاثة أقسام وهي جزء لا يتجزأ نابع من جهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله، ولبيان دليل الأقسام الثلاثة، نستعرض قبسات من المنهاج الرباني لتعليم الأمة الإسلامية ذلك المنهاج، والسير عليه في طريق الدعوة إلى الله مقتبسة من قصة موسى عليه السلام في تحمل مسؤولية الدعوة إلى الله كتطبيق لتلك الأقسام الثلاثة الآتية:.

أ. الاستماع والتلقي.

ب. التفكر والنظر.

ت. الدعوة إلى الله بالجهد والحركة.

أ. الاستماع والتلقي: ففي سورة طه دروس عدة بينها الله تبارك

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٣، التوبة آية ١٢٢، ص ١٧٣٤.

وتعالى حول جهد الدعوة إلى الله، فالدرس الأول، أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [سورة طه الآيات ٩ ـ ١٤] في الآية السابقة توضيح لمقام التلقي واستماع الدرس الذي لقنه الله ﷻ لموسى وأخذه بالتدريج يعلمه درس التوحيد الأول عن طريق ذات الألفاظ التي بينها تبارك وتعالى في قوله ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [سورة طه: آية ١٤].

فعلمه بداية ألفاظ التوحيد بأنه هو الإلٰه الحق الذي لا يستحق العبادة أحد سواه وأن ينزهه عن كل شريك ونقيص فإنه لا ند له ولا شبيه له ولا كفو له تعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، فرب العزة هو المربي والمعلم لموسى حتى ينهضه بأن يتحرك للدعوة إليه، تقدست أسماؤه وصفاته عن الشبيه والنقيص، وموسى في مقام الطالب الذي يستمع ويتلقى الدرس، فهذا موقف لتربية الداعي في تلقي علم التوحيد والعلم الشرعي الذي من خلاله يستبصر طريق الحكمة والبيان في الدعوة إلى الله تعالى.

ب. الفكر والنظر.

ففي المرتبة الأولى علّم الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام علم التوحيد، ثم أراد أن ينقله إلى درجة أعلى في المرتبة من الأولى، بحيث تتحول تلك الألفاظ إلى عقيدة تتغلغل في سويداء القلب فتنبض بها العروق وتتأثر بها الجوارح توحيداً لله ﷻ وهي درجة التفكر والنظر في قدرة الله تعالى وآلائه في الكون المحيط، وهي الدرجة التي بينها

الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام عندما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه: الآيتان ١٧، ١٨].

فأولاً: الله ﷻ يرغِّب موسى بالمحبوب الذي يحبه عن طريق العصا علماً بأنه سبحانه وتعالى يعلم بعلمه الأزلي عن جواب موسى لعصاه ولكن استئناساً ومنهاجاً له باتخاذ المنهاج الرباني، لترغيب الخلق إليه سبحانه وفتح القلوب بما تحب وتألف وتعليماً لنا ذلك المنهاج.

ثانياً: أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يلقي تلك العصا التي يرى فيها المنافع وقضاء المصالح فينظر إلى قدرة الله ﷻ ويتفكر كيف يحولها من الجماد إلى كائن حي يتحرك، أمراً منه سبحانه وتعالى، لموسى! أي انظر بأمري وتفكر كيف يتحول الجماد إلى حركة والحركة إلى جماد والضرر إلى منفعة والمنفعة إلى ضرر إنه على كل شيء قدير، في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [سورة طه: الآيات ١٩، ٢٠، ٢١] فأمرنا كذلك أن ننظر ونتفكر في ملكوت السمٰوات والأرض بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٢٠] وأثنى الله على قوم تفكروا في ملكوت السمٰوات والأرض بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران: من الآية ١٩١].

ج. دعوة قواعدها الحركة والجهد:.

ففي المرتبة الثانية وهي درجة التفكر والنظر في قدرة الله ﷻ منهاج للداعي بالتفكر في ملكوت السمٰوات والأرض الذي خلقه الله وأبدعه بقدرته وإرادته فيزداد يقيناً وتوكلاً على ذاته والدعوة إليه سبحانه وتعالى.

ثم جاءت المرتبة الثالثة في تعليم موسىعليه السلام بأن يتحرك بكلام التوحيد الذي سمعه ويتفكر فيه أن يبلغه لفرعون، فينقله من دائرة مغلقة إلى دائرة واسعة بحيث تتحول فيها تلك المراتب إلى يقين لا يخالطه وهم ولا يصاحبه ريب ولا يزاحمه اضطراب بقوله تعالى لموسىعليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة طه: آية ٢٤].

والمرتبة الثالثة هي منهاج رباني لجميع الأنبياء والدعاة إلى الله أن يتحركوا ويجتهدوا لتبليغ الدين، قال تعالى لنبيه محمد ﷺ:.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [سورة المدثر: الآيات ١، ٢، ٣] «قم» فعل أمر مبني على الحركة والجهد لتبليغ الرسالة، فهوعليه السلام ما قال للناس تعالوا واسمعوا ما أقول لكم ولكنه تحرك إليهم وعرض دعوته عليهم وتحمل أنواع البلايا والمحن لأجل ذلك، وكل الأنبياء أسمعوا الخلق عن الله وتفكروا في ملكوت الله واجتهدوا وتحركوا لله ﷻ.

د. التعليق والتوضيح على الأقسام الثلاثة:.

١. دعوة الاستماع والتلقي:.

وتمثل حالياً دور إلقاء محاضرة أو خطبة أو شريط مسجل، وهي تلقي بالمستمع الحصول على معلومات معينة حول موضوع ما،

وفي موقع معين ولمن لديه الرغبة في تلقي تلك المعلومات، وهذه المرتبة معمول بها في الجامعات والكليات الإسلامية والخطب والدروس الدينية في المساجد وغيرها.

٢. دعوة التفكر والنظر:.

وهي تلقي بالداعي إلى الله أن يحرك جوارحه تفكراً وتأملاً في ملكوت السمٰوات والأرض فليهج لسانه بالذكر توحيداً وجوارحه تعظيماً وفكره تدبيراً.

٣. دعوة الجهد والحركة:.

تجتمع فيها جميع الطاقات من العلم الشرعي والتضحية بالنفس والمال لقيام بالدعوة إلى الله، ويتبين أن جهد الأنبياء حوى تلك الأقسام الثلاثة كلها، فأقول وبالله التوفيق، لابد من تضافر الجهود وبذل الطاقات بداية من العلم الشرعي في تعليم التوحيد وكذلك العمل على تحقيقه وترسيخه في النفوس، عن طريق التزكية في تحمل مشاق الدعوة إلى الله بجميع الأساليب الشرعية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: آية ٢].

ذكر القرطبي في تفسيره: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يجعلهم أذكياء القلوب بالإيمان[١] فلابد من التضحية بالنفس والمال في سبيل الله تعالى (نقل الإمام ابن حجر في ج ٦ ص ٣٦ في شرحه على كلمة «في سبيل الله» عن الإمام ابن بطال أنه قال: والمراد في سبيل الله جميع طاعته، وهذا ترجيح من ابن حجر رحمه الله أن (سبيل الله) عام يحمل على كل طاعة، ومنها الجمعة ومنها الدعوة وطلب العلم وبر الوالدين

(١) الجامع لعلوم القرآن / القرطبي / ج ١٧ ـ ١٨ الجمعة آية ٢ ص ٨١.

وغير ذلك كثير مما يحتمله العموم)[1].

ثالثاً: مفهوم حصول اليقين من القرآن عن طريق الجهد الحركي:

أولاً: تعريف اليقين:.

هو إزاحة الريب وتحقيق الأمر (يقول أنا على يقين من ذلك الأمر) يقن الأمر و ـ بالأمر: علمه وتحققه فهو (موقن)، واليقين محركه (مصدر) وهو:

إزاحة الشك (رجل ذو يقن) لا يسمع شيئاً إلا أيقن، ذو يقن: ماء بعينيه.

واليقين:

هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال، ولذلك لا يسمى علم الله يقيناً بل يسمى:

(علم اليقين) وعلماً يقينياً، واليقين هو الموت[2]..

عن سفيان بن عيينة، عن سليمان التيمي، عن خيثمة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «**لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ﷻ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله تعالى فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهة كاره وإن الله بعدله وقسطه ـ جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[3].

قال سهل بن عبد الله التستري: «**حرام على قلب أن يشم رائحة**

---

(١) نظرة علمية في أهل التبليغ ج ٢، ص ٥٣(للشيخ أيمن أبو شادي).

(٢) معجم البستان / عبد الله البستاني ص ١٢٦٤.

(٣) مجمع الزوائد ٤/ ٧١: رواه الطبراني في الكبير وقال في كنز العمال ٣/ ١٦٠ رقم ٥٩٦١.

اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى»[1]..

واليقين:

هو العلم الذي لا يزاحمه وهم، ولا يصاحبه ريب، ولا يخالطه اضطراب مشتق من يقن الماء إذا حبس، وإشراق نوره هو ظهور أثره على الجوارح بالانحياش إلى الله والسكون والخضوع تحت جلاله، والمسارعة إلى ابتغاء مرضاته ولهج اللسان بذكره، وشغل القلب بالتفكر في عظمته[2]..

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٦٠] قلت: إن إبراهيم عليه السلام توجه لله بالطلب لتحويل اليقين الاستدلالي إلى اليقين المشاهد أو الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين.

فإن إبراهيم عليه السلام الذي وصفه ربه وزكاه بقوة توحيده فقال عنه:.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة النحل: آية ١٢٠] ولكنه لما توجه لله بقوله: أرني كيف تحيي الموتى؟ أمره الله بالجهد والحركة، للارتقاء من مقام علم اليقين إلى مقام عين اليقين أو مقام خواص الأمة وهو مقام الإحسان.

اشترط الجهد لذلك بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (ذكر ابن كثير في تفسيره): عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد أن الأربعة من الطير هي الطاووس والديك والغراب والنسر، وهذه الأصناف

---

(١) الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ - ص ٢١٦.

(٢) إيقاظ الهمم لأحمد الحسني التطواني، المتوفى سنة ٢٠٤١هـ - ص ٢٠٧.

الأربعة من الطير تحتاج إلى بذل الجهد في تحصيلها. وذكر ابن كثير في تفسيره: قال العوفي عن ابن عباس أنه عمد إلى أربعة من الطير فجزأهن أجزاءً وخلط بعضهم ببعض، ثم يضع تلك الأجزاء فوق الجبال، قيل أربعة أجبل وقيل سبعة، (وذكر ابن كثير) عن ابن عباس أن إبراهيم أخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله أن يدعهن فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طير يتصل بعضها ببعض[1]..

قلت: ووجه الاستفادة من البحث في حيثيات القصة السابقة لإبراهيم عليه السلام هو بيان حصول التوحيد عن طريق بذل الجهد والحركة، جاءت السنة وأقوال أهل العلم في توضيح طلب إبراهيم عليه السلام من ربه تعالى، ما بينه الإمام النووي في شرح مسلم في باب **«زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة»**.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:.

«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]..

اختلف العلماء في معنى **«نحن أحق بالشك من إبراهيم»** على أقوال كثيرة أحسنها وأصحها ما قاله أبو إبراهيم المزني صاحب الشافعي، معناه: أن الشك مستحيل في حق إبراهيم فإن الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق من إبراهيم وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك وإن سؤال إبراهيم لذلك من عدة عوامل:

---

(١) تفسير ابن كثير، البقرة، آية: ٢٦٠.

(٢) شرح مسلم، النووي، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ج١، ص ٤٦٠.

● سأل زيادة اليقين وإن لم يكن الأول شكاً فسأل الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين.

● أنه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالاً.

هـ. اشتراط الجهد بالنفس والمال للارتقاء إلى مقام خواص الأمة.

وهو مقام الإحسان:.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات ١٤ / ١٥].

لقد أخبر سبحانه عن الأعراب من بني أسد بن خزيمة أنهم قدموا على رسول الله ﷺ في سنة مجدبة ونطقوا بالشهادتين وأسلموا ولم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادَّعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات، الآيتان: ١٤، ١٥].

لقد دلت الآية السابقة على أن للإسلام ثلاث مقامات كما يلي شرحها.

ودلت السنة عليها من حديث عمر رضي الله عنه قال. بينما نحن عند

رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال يا محمد أخبرني عن (الإسلام) قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» قال صدقت فعجبنا إليه، يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن (الإيمان): قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» قال: صدقت، قال فأخبرني عن (الإحسان) قال:

«**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

قلت: فمن خلال التدبر حول الآية السابقة والتي دلت على المقامات الثلاثة وما تحويه من عبر وعظات، بأنها ترمز إلى (مقام الإسلام) في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [سورة الحجرات: ١٤].

أي أن الأعراب بنطقهم الشهادتين دخلوا الإسلام ووصفوا بالسالكين إلى الله تعالى، أو أنهم وصلوا إلى درجة الإيمان الموجود وما يتبعه بعد ذلك من الأحكام الشرعية فقول الأعراب (آمنا)، هو أمر لا يعدو أن يكون نطقاً باللسان، وعلى ذلك ادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فقال تعالى مخاطباً إياهم ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، وأوضحت الآية الكريمة، عن (مقام الإيمان) بتلك الفئة التي تقوم بتطبيق الأحكام الشرعية، بأنهم الواصلون إلى مقام الإيمان المطلوب وذلك لما ينبني عليه من التكاليف الشرعية، ورمزت إلى

---

(١) رواه مسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، ورواه الشيخان، والإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ. (الجامع الصغير ١/ ٤١٤ الحديث رقم ٣٠٤٢).

الواصلين إلى (مقام الإحسان) بخواص الأمة أهل التضحيات، الذين أخبأهم الله في قدره لنصرة دينه، وبينت الآية التدرج التلقائي للترقي في المقامات الثلاثة التي سبقت وهي نطق الشهادة، أي الإيمان الموجود وهو دخول الإسلام، والإيمان المطلوب في قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٤، ١٥] .فبين الله تعالى للأعراب أنكم في مقام السالكين وحتى تصلوا إلى مقام الإيمان المطلوب وما ينبني عليه من أركان الإيمان وأركان الإسلام والذي هو أخذ التكاليف الشرعية الذي بينه تعالى في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّآئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة التوبة: آية ١١٢]. فهذه الآية فصلّت في سمات المسلم القائم على شمولية الإسلام، من حيث العبادات والمعاشرات والمعاملات فنظام الإسلام جزء لا يتجزأ، وفي تحقق ذلك النظام الشامل الكامل في حياة المسلم مع الدعوة إلى الله تأتي البشارة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وللارتقاء إلى مقام خواص الأمة أهل التضحيات وهو مقام الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

اشترط الله تعالى لهذا المقام الأكمل، الجهد الأكمل عن طريق الجهد بالنفس والمال في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٥].

فالتضحية بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله تعالى هي الطريق الموصل إلى مقام الإحسان كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا

لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩] وقد سبق لنا أن بينا بعض التفاسير حول الآية الكريمة والتي ظهر فيها أن الآية نزلت قبل فرض القتال، وهي تتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال، وكذلك ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفيه مجاهدة النفوس، وللاستزادة من تفسير الآية، ذكر البيضاوي في تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾: أي في حقنا وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه. انتهى[1].

فالطائفة المنصورة المجاهدة في سبيل الله وهي التي أقامت نفسها على التضحية بالنفس والمال وهاجرت في سبيل الله لتبليغ الدعوة إلى الله فلم تبال بوطن ولا ولد ولا زوجة، فآثرت حب الله على ما سواه من المحبوبات، نظرت إلى ما عند الله من الخزائن الغيبية فشربت من ماء اليقين وتعطرت بعبير الإحسان قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: آية ٢٤] أي فبقيامهم على جهد الهداية يتحقق فيهم ترسيخ اليقين على ذات الله ﷻ، ففي قوله تعالى: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ بينت الآية جهد الهداية (أي الدعوة إلى الله) الموصل إلى مقام اليقين ذلك المقام الأكمل لحصول المعية ونزول النصرة الغيبية: مقام الإحسان وترسيخ العقيدة في النفس البشرية، واشترط الله تعالى للوصول إلى (المقام الأكمل) بذل الجهد بالنفس والمال لإعلاء كلمته ونصرة دينه.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ

(١) تفسير البيضاوي: ج٣/ ٤ العنكبوت آية ٦٩.

يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحجرات: آية ١٥] فزكاهم الله بالوصول إلى مقام الصدق من عنده فقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وأنهم ما وصلوا إلى مقام التزكية بالصدق إلا لما تحققت فيهم صفات الجهد.

والتضحية بالنفس والمال وإسقاط الإرادات والتدابير في النفس البشرية إلى تدبير الله ﷻ وما تحققت هذه التضحيات وترسخ اليقين إلا بعد التربية على البلاء والتمحيص في مكة المكرمة ثم الهجرة وترك المحبوبات والشهوات وتقديم حب الله على ما سواه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قوة أثر الهجرة في ترسيخ التوحيد، في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٤] نزلت في الأعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

قال الضحاك: معنى الآية، والذين جاهدوا فينا والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان(٢).

ولما امتثل الصحابة رضي الله عنهم الأمر بالهجرة وصفهم الله تعالى (بالفقراء) إظهاراً لقداسة ما قاموا به من ترك المحبوبات، وإسقاط العلائق عن أنفسهم بهجرتها، وتقديم حبّ الله تعالى على ما سواه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٥ ـ ١٦ الحجرات ١٤ ص ٢٩٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ١٣ ـ ١٤ العنكبوت ٦٩ ص ٣٢٥.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]. قال الإمام الهروي الأنصاري: «أعلى مراتب الفقر: حبس النفس في بيداء التجريد» [١] وهو إفراد القلب والقالب لعبادة الله تعالى وتوحيده.

نعم! إنه أعلى مراتب الفقر حيث أطلق عليه الجهاد (الهجري): وهذا النوع من (الجهاد): أشد أنواع الجهاد الذي مر على الصحابة ﷺ، إذ هو فراق للوطن، والأهل، والمال، والأحباب إلى ناسٍ لا يعرفون حالهم، وإلى بلد ليس فيه أنيسهم، ولا يدرون إلى أين مصيرهم، وهذا كله شاقّ على النفس تحمّله، خاصة إذا كان الإنسان في بلده ذا نعمة ورفاهية، ومنزلة رفيعة[٢].

فإذا ماجت الفتن، وعصفت رعود المعاصي، أمرنا الله تبارك وتعالى أن نفرّ إليه، وسنّ لهذه الأمة أن تقرأ سورة الكهف في كل جمعة من أيام الله، للنظر والعبرة والتذكر في ما قام به فتية الكهف من الفرار بدينهم، في حال الفتن والمصائب التي تلوح بالأمة، وذلك بالفرار إلى بيوت الله عز وجل والاجتماع على الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

قال سهل التستري: «إنما سماهم الله فتية لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة وأقاموا إليه بإسقاط العلائق عن أنفسهم»[٣].

---

(١) طريق الهجرتين، ابن قيم الجوزية، ص ٤٥.

(٢) مشارع الأشواق لابن النحاس الدمياطي، ص ٢٧.

(٣) تفسير التستري، سهل التستري، سورة الكهف آية ١٣، ص ٩٧.